مثقف بين الروح والزمان

رشـــا ماهـــر(*)

"إن الاســتبداد الــسياسي مُتولد من الاستبداد الديني، والمخالفة بينهما أنهما حاكمان؛ أحدهما في مملكة الأجساد والآخر في عالم القلوب".

عبد الرحمن الكواكبي

ا. تقديم

حين يتم الحديث عن السلطة -غالبًا- ما يكون التسلط أى ممارسة التحكم والــسيطرة وبــسط النفوذ، في حين أنها تعنى -على نحو أعمق- التوجيه، أو القدرة على توجيه السلوك نحو اتجاه ما(١).

وبــذلك يكــون الدين، والمال، والعادات والتقاليد والأعراف، والقانون، والمباديء -الذاتية والموضوعية- والأحداث خارجية وداخلية، و..... ذات قدرة على التوجيه.

(*). باحثة ماجستير، قسم الفلسفة، آداب القاهرة. Roots_Rasha@yahoo.com.

(١). http// www. Wikipedia.org.

وبما أن الحاكم لا يكون كذلك بدون محكومين، وبما أن المحكومين لا يكونوا كذلك بدون شيء يتفقون عليه ليحكم بينهم، ويكون موضع تنفيذ يطبق عليهم جميعًا.... كان "القانون".

فالقوانين ليست غريبة عن الفرد؛ لأنها من صنعه، فهو منبعها الأصيل، والفرد المسئول هو من يخلق القرار وينفذه. لكن الواقع ينم عن انتفاء الفردية وانتشار أخلاق القطيع، كتلة واحدة لا تمايز فيها ولا تفرد[1].

وهذا ما يعيه المثقف ويعمل على فض مغاليقه، وتخليقه من جديد في سرائر الشعوب. فهذا عمله الرصين في الجانب الزماني المتقطع، والمتغير باستمرار... أما في الجانب الروحي الداخلي المستكين -إلى حد ما- جانب الدين، فإن عمل المثقف لا يتوقف على النصوص فحسب بل على اللصوص أيضًا.

نعم الذين يحولون الاجتهاد والرأي إلى مذهب وعقيدة، ويدعون إلى الطاعة الآثمة، وتقبل الأوضاع بما لها وما عليها... الذين يحرسون المؤسسات، بل ويزيدون من إنشائها.

---

(1).عبد الفتاح إمام، إمام: "لم أجد مرحلة واحدة من تاريخنا القديم، والوسيط، والحديث، والمعاصر استطاع فيها المواطن العربي أن يقول بملء الفم: هذه بلادي، وأنا أنعم فيها بإنسانيتي وكرامتي وأتمتع بجميع حقوقي وعلى رأسها حرية الفكر، والتعبير، والمشاركة في الحكم، وفي صنع القرار السياسي ...."، الطاغية، نهضة مصر للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٦، صـ٢٥.

وقبل الولوج في ذلك الحراك، والوقوف على النتائج، لابد من إيضاح أن هنالك أنماطًا للمثقف، قد تتداخل فيما بينها، وقد تنفرد ..

٢. أنماط المثقف:

نمط يتعايش مع الوضع السائد، ويصادق السلطة بكل أنواعها، فيضحى فقيه السلطان، وصديق رجل الدين... الهاتف والمصفق والمبرر للآراء والقرارات، واللاهث وراء الأضواء، والثروة، والسلامة "الآنية"؛ فهو خائن للجماهير، متسلق فوق جثثهم، خارج دائرة الفعل. إنه "**الخائن**".

ونمط معارض للاستكانة والخنوع وتقبل الأوضاع، يناضل ويرفض ويصادم ويفند... يدخل بجسارة في سائر الأعشاش؛ ليكشف الأحجبة ويمزق الأقنعة برمتها، ليوقظ بصيرة البشر أو يخلقها.. فيضحى شهيدًا لعدم إيثار السلامة المزيفة، معذَّبًا ومدانًا بتدبير المؤامرات وتهديد الأمن العام، منفي، وهامشي، وهاو[1]. إنه "**الشهيد**".

ونمط أخير متفحص ومتأن، يسعى إلى تغيير وجه الحياة إلى ما هو أفضل، سعيًا حثيثًا متأنيًا... يمسك في يده اليمنى معول هدم وفي يده اليسرى

---

(1). سعيد، إدوارد: "إن الواجب الثقافي الرئيسي هو البحث عن استقلالية نسبية من مثل هذه الضغوط. ومن هنا جاء وصفي لخصائص المثقف أنه منفي، وهامشي، وهاو، ومؤلف لغة تحاول أن تقول الحقيقة للسلطة." الآلهة التي تفشل دائمًا، ترجمة: حسام الدين خضور، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٣، صـ ١١.

حجـــر بنـــيان... يحاول جاهدًا أن لا يقع بين المِطرقة والسَّندان... يحاول أن يصبح قنطرة بين السلطة والجماهير.

فبامتلاكه لسلاح المعرفة يقوى على الخروج من القيود الثقافية والاجتماعية والحـــضارية والتعـــصبية إلى رحاب الحوار والتعددية، وتقبل الرأي الآخر، والـــتعامل معه في الحيز الفعلي..... فهو الضمير المتقد اليقظ، الحامل للشعلة على الدوام. إنه "الضمير".

٣. طبيعة المعرك الثلاثي:

يـــتم الجـــدال والتداخل عميق الغور بين الأنماط الثلاثة "للمثقف" بحيث يؤدي دور كل منهم إلى دور الآخر في تراتب منطقي "أول – ثاني– ثالث"، ثم صراع وجودي. فعلى سبيل المثال عند محاولة تفسير نص ما –وليكن آية من القرآن– يتم تأويلها مرة لصالح زمن أو أمر محدد "الخائن"، ومرة لصالح اللغة وأدواتها ومعانيها ودلالتها بطريقة قد تتضاد مع مصالح أفراد أعلام "الشهيد"، ومرة أخيرة يتم تأويله بشكل أكثر توضيحًا ومرونة وأقل جمودًا وتعسفًا، بحيث تعني الإنسانية جمعاء "الضمير"[١].

---

(١). الكواكبي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، يقول: "وكأن المسلمين لم يسمعوا بقول النبي عليه السلام "الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي علـــى أعجمي إلا بالتقوى"، وهذا الحديث أصح الأحاديث لمطابقته للحكمة ومجيئه مفـــسرًا الآيـــة ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ فإن الله جل شأنه ساوي بين عباده مؤمنـــين وكافـــرين فـــي المكـــرمة بقوله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ ثم جعل الأفضلية في الكرامة للمتقين فقط، ومعنى التقوى لغةً ليس كثرة العادة، كما صار

والجدال الثائر بين الأول والثاني يكون في نطاق "خاص"- أي بين المتخصصين - ثم يتطرق إلى النطاق "العام" بفضل الثالث؛ كمحاولة لخلق حوار و ثقة بالذات. وقد يضحى الأول ثاني، والثاني ثالث والعكس بالعكس؛ فدوام الحال من المحال. لكن الأمل في ثبات "المضمون" لا الدور.

٤. دور إيجابي "للفعّالية الإنسانية":

والمثقف الضمير -هنا- هو القائم على إثارة الحراك الفعلي بين الروح والزمان، بحيث يقوم بإرساء وعي عقلي نقدي عملي لدى الشعوب. فالشعب هو الأساس لدى الحاكم، ولدى رجل الدين، فلكي تستمر العلاقة التكافلية Symbiosis لابد من وجود ذات وموضوع، والعكس صحيح[١].

ومن ثم **الشعب** هو الغاية والوسيلة، فلكي يحقق الضمير المتقد التجاوز الذى يرنو إليه -علي الدوام- فإنه يعمل على تربية النشء بأسس رصينة، تحمل في طياتها القدرة على ممارسة التفكير النقدي الواعي، تفكير يناقش

إلى ذلك حقيقة عرفية غرسها علماء الاستبداد القائلين في تفسير "عند الله"، أي في الآخرة دون الدنيا، بل التقوى لغةً هي **الاتقاء**، أي الابتعاد عن رذائل الأعمال احترازًا من عقوبة الله. أنظر ذلك في:

WWW.FOURAR. TK

(١). عبد الفتاح إمام، إمام: عن إريك فروم "إن التكافل بالمعنى السيكولوجي الذى نقصده هو اتحاد ذات الفرد مع ذات أخرى -أو أية قوة أخرى تقع خارج الذات- بطريقة تجعل كلا منهما يفقد تكامل ذاته -أو استقلالها- ويعتمد على الآخر اعتمادًا تامًا...."، الطاغية، مرجع سابق، صـ٣٢٣.

ويحاور، ويحترم رأيه والرأي الآخر.... يعمل على تخليق الوعي شبه الكامل بالقانون وأهميته، بل وممارسة الحرية الفردية من خلاله؛ حتى ترسخ وتمارس روح الديمقراطية. يعمل على ترسيخ وتدعيم ممارسة "علوم الحياة" من سياسة وفلسفة ومنطق وتاريخ واجتماع وحقوق،.... لما تتيحه من تفتح ذهني وروحي، وليس اقتصار الانهمام على علوم اللغة!![1].

فالشعب هدف في حد ذاته، ووسيلة للتخلص من ربقة التسلط وبسط النفوذ، فحينما يعي الشعب دوره الفعَّال في بناء ذاته، ومجتمعه، في بناء زمانه ومكانه... حينما يتم ذلك -على نحوٍ كامل- لن نجد سادي على وجه البسيطة؛ فهو حتمًا سيحطم ويندثر.

حينما يتم ذلك لن يفرض رأي ما، أو مذهب ما يتلون بلون القداسة، لن يصبح "النص" ملكًا معرفيًا لأحد، بل شد وجذب، رأي ورأي آخر، تجاوز، ديمومة خلاقة ... حياة.

فلكي يكون الإنسان إنسانًا، لابد أن يكون حرًا، بشكل يمكن أن يتعايش به مع حرية الآخرين، وفقًا لقانون كلى... أى أن يضع الفرد في ذهنه وهو يسلك

---

(1). الكواكبي، عبد الرحمن: مرجع سابق، "المستبد لا يخشى علوم اللغة... ولا يخاف من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد... لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة، إنما يتلهى بها المتهوِّسون للعلم... ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل: الحكمة النظرية، والفلسفة اعقلية، وحقوق الأمم، وطبائع الاجتماع، والسياسة المدنية، والتاريخ المفصل والخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تُكبر النفوس، وتوسع العقول، وتعرف الإنسان ما هي حقوقه وكم هو مغبون فيها، وكيف الطلب، وكيف النوال، وكيف الحفظ".

سلوكًا ما، إمكان تعميمه ليصبح قانونًا عامًا، كذلك أن يعامل الإنسانية في شخصه، وبكونها غاية في ذاتها وليست وسيلة، فهذا أساس الحرية، وهو ما ذهب إليه كانط حينما قال: "افعل بحيث تجعل إرادتك بمثابة المشرع الذى يسن للناس قانونًا عامًا"(١)

إذن فالضمير الحي يعمل على خلق علاقة حوار، تأثير وتأثر متبادلين بين صنوف السلطة، يعمل على توضيح وإرساء الأخلاق القويمة في نفوس الشعب، وإن تطلب الأمر البدء بالنشء.

أخلاق الحرية، والحق، والعدالة، والصدق، والمبادرة، والتواصل، والشجاعة، وعدم اليأس، و.... أخلاق عملية تطبيقية وليست نظرية فحسب... أخلاق تعمل على خلق الحياة، حتى يكون الإنسان الفرد جدير بأن يحيا فيها.

٥. خاتمة:

قد نحتاج في بعض الأحيان إلى من يزيح عنا غشاوة الظلام وبراثن الجهل، من يوضح ويدعم وينقي، من يبث في حياتنا "الحياة" وينشر الأخلاقيات والسلوكيات الإنسانية، من يؤكد لنا أن كلًا منا كيان متسق متفرد، له عدة أدوار: خاصة، وأسرية، وقومية .. فهذه هي شراكة الحياة(٢). وكما قال

---

(1). عبد الفتاح إمام، إمام: الديمقراطية والوعي السياسي، نهضة مصر للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٦، صـ ٥٠

(2). الكواكبي، عبد الرحمن: مرجع سابق، "إن بواسق العلم وما بلغ إليه، تدل على أن يوم الله قريب، ذلك اليوم الذي يقل فيه التفاوت في العلم وما يفيده من القوة، وعندئذ

الكواكبـــي: "إذا وجد في الأمة الميتة من تدفعه شهامته للأخذ بيدها والنهوض بهـــا فعلـــيه أن يـــبثَّ فيها الحياة وهي العلم، أي علمها بأن حالتها سيئة، وأن بالامكان تبديلها بخير منها... حتى يشمل أكثر الأمة، وينتهي بالتحمس و..".

وكما قال سارتر "المثقف هو الإنسان الذى يقوم بمهام لم يكلفه بها أحد".

فهل ذلك صحيـــح؟

تتكافأ القوات بين البشر، فتنحلُّ السلطة، فيسود بين الناس العدل والتوادد، فيعيشون بشرًا لا شعوبًا، و شركات لا دولًا، وحينئذ يعلمون ما معنى الحياة الطيبة".